"سلسلة الوجود الكبرى"

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

كثيرا ما يشعر القارىء لتاريخ الفكر الفلسفي والمنقب في مذاهب الفلاسفة ، بأن ضربا من الوحدة « الجبرية » يملي نفسه على ذلك التاريخ وتلك المذاهب ، وان مشكلات واحدة بل منطلقات واحدة لمعالجة هذه المشكلات تكاد تفرض نفسها على هؤلاء الفلاسفة ، مهما تباينت منازعهم واختلفت في الظاهر أنظارهم .

واذا أردنا التعبير عن هذا الشعور تعبيرا أوضح قلنا ان ثمة تراثا فلسفيا ـ يرجع الى التراث اليوناني خاصة ـ فرض نفسه سلبا وايجابا على الفلاسفة في كل عصر ومصر ، وألزمهم بمعالجة الامور بدءا من اطار معين وجعلهم يدورون في حلقته وينطلقون من موضوعاته وبديهياته ومقولاته ، سواء قادتهم دراساتهم الى تأييدها أو الى دحضها .

فكأن تاريخ الفلسفة أمام « لازمة » لا بد منها ، وأمام « دور » كدور الغناء وأمام لحن واحد أصيل كاللحن الموجه للسمفونية ، تصحبه الحان هي منه وله .

• قد يقال ان هذه الظاهرة أعمق شاهد على عراقة الفلسفة وأصالتها وطرحها دوما وأبدا مشكلات واحدة تنبىء عن أزمة الانسان الازلية ومصيره الابدي .

وهذا قول يشتمل على جانب من الصحة . غير ان من الصحيح كذلك ان نقول ان الفلسفة الاولى ـ فلسفة يونان وأفلاطون وأرسطو ـ منحت الفلسفة في شتى العصور سماتها وقسماتها ، وحفرت لها أقنيتها وشقت أمامها سبلها ، بل أرغمتها على دروب لم تستطع ان تغادرها ، وضمخت اناء الفلسفة منذ القديم بعطر أبدي خالد .

وبقول موجز من الصحيح ان نردد مع هوايتهد ان تاريخ الفلسفة ما هو الا سلسلة من « الحواشي الطويلة على افلاطون » .

تاريخ الافكار :

والكتاب الذي بين يدينا (١) خير تجسيد لهذه الحقيقة . ومؤلفه ينزع منزعا خاصا يجعل من دراسة الاصول الكبرى للمذاهب الفلسفية فلسفة له ومنهجا . وهو فيما يقول لا رد أن يؤرخ للفلسفة بمقدار ما يريد ان يؤرخ للافكار الكبرى او للوحدات الفكرية الاساسية التي فرضت نفسها على تاريخ الفلسفة . فهنالك عدد محدود ـ ومحدود اكثر مما نتصور ـ من الفكر الفلسفية الاصيلة هي التي تظهر على المسرح في شتى العصور ، وحولها تدور المذاهب ومن التأليف بينها تأليفات متباينة تكون المدارس والنظريات .

ولهذا نادي « لفجوي » بضرورة دراسة هذه الافكار الاصيلة اذا أردنا ان نفهم تطور الافكار في مختلف العصور . وحلو له أن شبه نهجه هذا في تاريخ الافكار بنهج الكيمياء التحليلية . فكما ان هذه الكيمياء تلجأ الى رد الاجسام المركبة الى عناصرها ، يلجأ هذا التاريخ الفكري الى رد المذاهب الفلسفية الى العناصر التي تتركب منها ، أي الى تلك الوحدات الفكرية الاصيلة التي فرضت نفسها منذ أيام افلاطون ، وظلت موئل الفلاسفة والباحثين . وما مذهب الفيلسوف ـ في رأيه ـ الا مركب غير متجانس من هذه الافكار الامهات ، بل ما هو الا مركب غير مستقر . والخلاف بين المذاهب الفلسفية يرجع أخيرا الى الخلاف بين أنماط التركيب التي يقوم بها كل فيلسوف حين يضم هذه الافكار الامهات وينظمها في عقد فلسفته . فالجديد اذن في فلسفة الفيلسوف ما هو عدد الفكر الفلسفية الجديدة والبواعث الجدلية الجديدة التي يأتي بها . فهذا العدد دون ما نتخيل . بل الجديد شكل طراز تأليفه بين أفكار رائدة طرحت منذ القدم وفي شكل تركيبه للعناصر القديمة . فالجدة في التنظيم هنا ايضا ، كما يقول باسكال .

الوحدات الفكرية :

وليست هذه الوحدات الفكرة او تلك العناصر الاصيلة التي ترتد اليها المذاهب ، هي تلك الافكار التي درج تاريخ الفلسفة على الحديث عنها واصطلح على تسميتها بالمفاهيم التاريخية الكبرى . وهي لا تنطبق ـ كما يخيل الينا ـ على تلك المذاهب الكبرى التي يتحدث عنها المتحدثون في تاريخ الفكر الانساني كالمثالية والواقعية والرومانطيقية والعقلية والذرائعية ومذهب التعالي . فهذه المذاهب ليست العناصر التي يتكون منها تاريخ الفكر ، بل هي مركبات قابلة بدورها الى أن ترد الى عناصر ابسط منها ، هي التي يتوجب علينا البحث عنها وهي التي تكون تاريخ الفكر الذي يقصد اليه « لفجوي » .

فما هي اذن تلك العناصر « أو الوحدات الفاعلة الاولية الثابتة » التي نجدها في تاريخ الفكر والتي توجه ما نعرف من مذاهب ونظريات ؟ انها مختلفة الاشكال والاجناس ، ومن الصعب ردها الى جنس واحد . ويورد المؤلف بعض الانواع الرئيسية لها ، نوجز بعضها فيما يلي :

١ ـ الافتراضات الضمنية او الصريحة بعض الشيء والعادات الذهنية غير الواعية الى حد ما ـ التي تفعل في **فكر فرد او جيل من الاجيال** . فهنالك مثلا النزوع الى

(١) تحليل ونقد لكتاب ارثر لفجوي : سلسلة الوجود الكبرى ، ترجمة الدكتور ماجد فخري ، نشر دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٤ .

التفكير من خلال بعض الاطر العقلية او الاشكال الخيالية الخاصة . فثمة عقول ساذجة مبسطة للامور تميل الى البحث عن الحلول السهلة للمشكلات ! وثمة عقول تنزع ـ على العكس ـ الى المعقد المشتبه المشتبك . ومثل هذه الانماط من التفكير قد تسم عصرا بكامله . فممثلو عصر النهضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانوا نزاعين الى تكلف البساطة ، وفلسفة ذلك العصر كانت نزاعة الى التواضع العقلي ، وكانت ترى في البساطة « أروع زينة للحقيقة » . أما أصحاب النزعة الرومانطيقية فيشككون في البسيط بل يحقرونه ، ويجمع بينهم ذلك التقعر الرومانطيقي الذي تحدث عنه شليغل .

٢ ـ الاحساس بأجناس متنوعة من الحماس الميتافيزيقي : فهذا الاحساس الذي يختلف من انسان الى انسان ومن جيل الى جيل ، يلعب دورا هاما في « تعيين الازياء الفلسفية والنزعات التأملية » . وهذا الحماس الميتافيزيقي مزاج فلسفي ان صح التعبير يتجلى في الاهتزازات العاطفية الضخمة التي تحدث لدى المرء عند قراءة كتاب فلسفي أو قصيدة معينة أو مقطوعة نثرية او غير ذلك من اشكال تصوير العالم . ومرد ذلك الى تجاوب هذه الصور مع النمط الميتافيزيقي الذي ينتسب اليه ومع الطبع الفلسفي الذي هو طبعه . فهنالك مثلا أناس ينزعون الى **التحمس للغموض الصرف** أو لروعة ما لا يدرك . ومثل هذا الغموض هو الذي يرفع شأو بعض الفلاسفة في نظرهم . حتى ليصح ان نقول ان الشهرة الكبيرة التي حظيت بها بعض الفلسفات ترجع الى حد كبير الى ما فيها من مثل هذا الغموض ومثل هذا « المجهول المعجب » . فقارىء مثل هذه الفلسفات قد لا يفهم ماذا تعني بالضبط « غير انها تتسم من جراء ذلك بالمزيد من سمة الشموخ » ، حين تشيع شعورا لذيذا من التهيب والرفعة . وهذا ما ينطبق على مثل فلسفة « شلنغ » و « برغسون » .

ومن أشكال هذا الحماس الميتافيزيقي الذي يلعب دوره في تكوين الافكار وفي قبولها ، **التحمس لما هو أزلي ،** أي « اللذة الجمالية التي تبعثها فينا فكرة عدم التغير المجردة المحض » . والشعراء المتفلسفون يعرفون كيف يثيرونها . ومن أشكاله كذلك **الحماس التوحيدي او الحلولي** . فرد كل شيء الى الوحدة مصدر حبور كبير لدى عدد كبير من الناس ، كما لاحظ جيمس .

وهكذا تقوم أنواع مختلفة من الحماس الميتافيزيقي يملك الناس لها حساسيات خاصة ، وتلعب دوا عظيما في تكوين النظم الفلسفية عن طريق التحكم بمنطق الكثيرين من الفلاسفة خفية وعن طريق ترويج شهرة الفلسفات المختلفة وتأثيرها على الجماعات او الاجيال التي كان لها عليها اثر ما » . ومن مهمات تاريخ الافكار كما يريده « لفجوي » اكتشاف هذه الحساسيات المختلفة المتصلة بضروب الحماس الميتافيزيقي « وتبيان الدور الذي تلعبه في تكييف نظام ما أو اضفاء طابع الوجاهة والرواج على فكرة ما » .

٣ ـ ومن أبرز ما تتجلى به هذه الوحدات الاولية الفاعلة في تاريخ الفلسفة والفكر بعض **القضايا او المبادىء الخاصة التي يجهر بها فيلسوف بعيد الاثر ،** من مثل أفلاطون ، جوابا على سؤال فلسفي كان من الطبيعي ان يسأله الانسان .

وههنا ندخل في صلب موضوع الكتاب الذي بين يدينا . فهو يهدف الى جلاء واحدة من هذه القضايا التي لعبت دورا كبيرا في حياة الفلسفة والفكر عبر العصور . ولا تتبدى هذه القضية ـ والحق يقال ـ في فكرة بسيطة واحدة بل هي جماع ثلاث فكر كانت « في غضون القسم الاعظم من تاريخ الغرب مرتبطة ارتباطا وثيقا » ، وكان من نتائجها ان ولّدت مجتمعة مفهوما من أعظم المفاهيم في الفكر الغربي ، أطلقت عليه خلال فترة طويلة تلك العبارة التي هي عنوان الكتاب الذي بين يدينا ، نعني « سلسلة الوجود الكبرى » .

والكتاب من أوله الى آخره محاولة لتقصي اثر هذه المجموعة أو الوحدة من الافكار التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ الفلسفة ، وجهدا دائبا للرجوع الى مصادرها التاريخية الاولى عند مثل أفلاطون واستكناه تأثيراتها المتشعبة وصورها الشتيتة عبر العصور وفي شتى الميادين .

مفهوم سلسلة الوجود :

فما هي هذه الوحدة من الافكار التي يلحق بها المؤلف والتي حملت وأتأمت عبر العصور ، وكانت كثير من الفلسفات والابحاث ترجيعا لاصدائها وهوامش على متنها ؟

انها مجموعة من الافكار تبدو أول ما تبدو عند أفلاطون ، ويتلقفها الفلاسفة من بعده ويقلبونها على وجوهها ، مؤيدين من جديد قولة « هوايتهد » التي سبقت الاشارة اليها : « ان أسلم تصوير عام للتراث الفلسفي الاوروبي هو انه يتألف من سلسلة من الحواشي على أفلاطون » . وقد عرض هذه الافكار أفلاطون في الجمهورية وفي طيماوس خاصة ثم بسطها ونسّقها الافلاطونيون المحدثون . وقوام هذه المجموعة من الافكار او هذا المركّب الفكري ، مبدأ يمكن ان يطلق عليه اسم **مبدأ « التمام » ،** وهو مبدأ أكمله وانبثق منه مبدأ اخر هو مبدأ الاتصال ، ثم ولد من ذلك كله مفهوم الكون كسلسلة عظمى للوجود » .

ولن ندخل في تعاريج هذه المبادىء وفي تخاريمها على نحو ما يعرض لها لفجوي في كتابه . وحسبنا ان نقول ـ في اطار ما نتحدث عنه من تأثير لبعض الفكر في تاريخ الفلسفة ومن تأثير لافكار افلاطون هذه خاصة ـ ان ثمة اتجاهين متضاربين عند افلاطون وفي الميراث الافلاطوني ، خلّفا تضادا وتناقضا في افكار الكثير من الفلاسفة وتركا كثيرا من الفجوات في تراث الفلسفة الاوروبية وتاريخ الفكر الغربي . هذان الاتجاهان المتضادان هما **النظرة الاخروية والنظرة الدنيوية الى الخير المطلق**

أو الى الاله بالمعنى الافلاطوني . اما النظرة الاخروية فهي تلك التي ترى في المطلق او في الخير الاسمى وجودا مكتفيا بذاته خارجا عن الزمان وعن مقولات الفكر والتجربة البشرية « غير مفتقر الى عالم من الموجودات الدنيا من شأنها ان تضيف شيئا الى كماله الازلي المشتمل على ذاته أو أن تفيض فيه » . اما النظرة الدنيوية فهي تلك التي ترى في المطلق او الخير الاسمى (أو الاله بالمعنى الافلاطوني) وجودا غير مكتف بذاته ، تستلزم طبيعته الجوهريه وجود كائنات أخرى ، بل وجود جميع الاجناس التي كان بوسعها أن تجد مكانا لها في سلم امكانيات الوجود ، اي انها ترى فيه « الها كانت صفته الاولى الابداع وكان تجليه انما يتمثل في تنوع المخلوقات وبالتالي في السباق الزمني وفي مشهد الافاعيل الطبيعية المتعددة » .

وفي ضوء هذا التضاد الاولي بين النظرة الاخروية والنظرة الدنيوية يمكن ادراك دور افلاطون المزدوج في الفكر الغربي على خير وجه . ومن هذا التضاد انبثق ما لا حصر له من الشروح ومحاولات التوفيق ، خلال العصور الوسطى وأيام عصر النهضة وفي العصر الحديث. وهكذا لم يقف اثر افلاطون في تاريخ الفكر عند حدود اشاعته للنظرة الاخروية وبثه لشكلها وعبارتها ومنطقها الخاص ، بل تجاوز ذلك الى ما هو أدهى وأمر ، وهو انه أشاع الشكل والعبارة والمنطق الخاص على النزعة المضادة ذاتها ، نعني النزعة الدنيوية . فكلتا النزعتين في تاريخ الفكر اصطبغتا باللون الذي منحه لهما منذ البداية . وبهذا ساد عبر العصور وعند مختلف الفلاسفة والمفكرين مفهومان للاله كما قلنا : مفهوم الاله المكتفي بذاته (وهو نظير مفهوم مثال المثل عند افلاطون ككمال محض) ومفهوم الاله الذي ينبغي أن يكون فوق هذا مصدرا للمخلوقات التي تصبو اليه والذي يكوّن جوده جزءا من وجوده . فمن صفات صانع العالم ــ كما يرى افلاطون ــ انه كان خيّرا ، ومن خصال الخيّر ألا تساوره غيرة من أي شيء اخر قط ، أي ألا يمتنع عن ابداع شيء اخر عداه ، نعني عالم الكون والصيرورة . وهكذا نرى مفهوم الكمال المكتفي بذاته ، يتحول عند افلاطون بفضل قلب منطقي جريء ، الى مفهوم خصب متعال على ذاته ، ويصبح الواحد الازلي غير المادي هو الاساس المنطقي والمصدر الحسي لوجود عالم زماني في منتهى التعدد والتنوع .

من هذه الفكرة الولود التي تحمل التناقض في داخلها ولد ما ولد من مذاهب وأنظار وداخل الفلسفة واللاهوت الاوروبيين ذلك المركّب من الفكر التي أدت طوال أجيال الى ضروب من النزاع والتيارات المتضاربة منطقيا وعاطفيا ، أو قل الى مفهوم الهين في اله واحد . وقد أضاف أرسطو الى هذه الفكرة المتناقضة ذاتيا فكرة أخرى دمجت مع مذهب التمام الافلاطوني وغدت من متضمناته المنطقية ولقيت رواجا بعد ذلك ، هي فكرة الاتصال . فكل شيء في الطبيعة ــ في عرف هذا المبدأ ــ آخذ بعضه برقاب بعض ، وليس هنالك انفصال بل اتصال بين عالم الجماد وعالم النبات أو عالم النبات وعالم الحيوان، والطبيعة ترفض الانصياع لشغفنا بخيوط القسمة الواضحة وتحب مناطق الشفق . ويقترح أرسطو في كتابه «النفس» ترتيبا تصاعديا لجميع الحيوانات ، كتب له أن يؤثر تأثيرا عظيما في الفلسفة وفي عالم الحيوان اللاحقين .

وحصاد هذا كله ذلك المفهوم لتصميم العالم وتركيبه الذي قدّر لعدد من الفلاسفة ولمعظم العلماء ، بل ولسواد المثقفين من الناس ، طوال العصور الوسطى وحتى اخر القرن الثامن عشر أن يأخذوا به دون تردد ، ونعني به « مفهوم الكون » كسلسلة عظمى للوجود » مؤلفة من عدد لا يحصى او عدد غير متناه من الحلقات المرتبة ترتيبا تصاعديا ، من أخس أجناس الموجودات التي تكاد لا تتعدى العدم ، مرورا بكل مرتبة ممكنة حتى الكائن الاكمل .

مبدأ التمام وسلسلة الوجود في العصور التالية لافلاطون :

تلك هي اذن طائفة الفكر التي كونت وحدة والتي تسربت من مبدأ التمام عند افلاطون والافلاطونية المحدثة واقترنت بجملة الافكار التي انبثقت عنها، من مثل فكرة الاتصال الارسطاطالية وفكرة سلسلة الوجود ، واندست في شتى عصور الفكر فولدت تلك المجموعة من المفاهيم الاولية التي كونت لاهوت العالم المسيحي في القرون الوسطى وفلسفته الكونية ، ثم تجلت في النظم الفلسفية الكبرى في القرن السابع عشر وعلى رأسها فلسفة اسبينوزا وفلسفة ليبنتز خاصة ، بل بلغت ذروة الانتشار والرواج في القرن الثامن عشر، ولم يكن فيلسوف مثل كنت غريبا عنها ، وعرفت شأنا خاصا لدى اصحاب فلسفة التفاؤل في ذلك القرن . ولا يقف اثر هذه الوحدة الفكرية المكونة من مفهوم سلسلة الوجود وما يلحق به عند هذه الحدود بل يجاوزها الى ما هو أبعد من ذلك ، اذ كان لها اثرها في الفلسفات المتصلة بموقع الانسان من الطبيعة ومركزه في الكون ، وفي بعض جوانب علم الحياة في القرن الثامن عشر . بل داخل هذا المفهوم ــ بعد أن أصاب تطورا وأضفيت عليه صفة زمنية ــ مفاهيم الفن والادب والجمال ، وكانت له جولات في الحركة الرومانطيقية .

وهكذا تكوّن المجموعة الفكرية المكونة من مبدأ التمام الذي ولد من افلاطون والافلاطونية ومن مبدأ الاتصال الارسطاطالي ومن مبدأ سلسلة الوجود ، الخيط الرائد الذي يتحلق حوله تاريخ الفكر والفلسفة . والتناقض الاصيل الثاوي في هذه المجموعة وفي مبدأ التمام خاصة ، ينتقل عبر العصور ، فيشغل المفكرين ويفتق القضايا ويطرح المنازعات ، وتتكون منذ سداة الانظار الفلسفية خلال التاريخ .

ومن العسير في هذا المقام أن نأتي على تفصيل أصداء هذا المركّب من الفكر لدى مثل القديس أغسطينوس والقديس توماس الاكويني والقديس ابيلار في العصور الوسطى ، او على تبين اثاره في التمهيد للانتقال من مفهوم القرون الوسطى لحجم العالم المادي وموقع الانسان فيه الى المفهوم الحديث الذي لم تلعب الفرضية

الكوبرنيكية ـ كما يبين لفجوي ـ دورا كبيرا فيه بل لعب فيه مفهوم التمام هذا دورا أكبر . ومن العسير كذلك ان نلاحق هذا المركّب لدى مثل ليبنتز واسبينوزا وان نطلع على صياغة أولهما لمبدأ التعليل الكافي . وتطول بنا الجولة ان نحن أردنا أن نقتفي آثاره لدى « بيكون » و « أديسون » و « بولينبروك » و « كنت » و « بوني » و « جينز » وكثير غيرهم في القرن الثامن عشر . وهيهات ان نستطيع الاحاطة بما كان له من دور في تاريخ العلوم البيولوجية في ذلك القرن ، وما تركه من أصداء لدى امثال « لوك » و « بوفون » و « غولدثميث » واما اثاره من ابحاث حول الحلقة المفقودة بين النبات والحيوان وبين القردة والانسان وما كان له من دور في نظرية التطور بعد ذلك . هذا فضلا عن بيان اثاره في الادب والفن والشعر والحركة الرومانطيقية وفي فلسفة شيلر و « روح العاصفة والاجتياح » ، وفلسفة شلاير ماخر ودعوته الى التنوع وحملته على وحدة الشكل في الفكر والخلق .

وحسبنا ان نقول عابرين ان عنصري التناقض الثاويين في قلب هذا المركب الرائد من الفكر ، ظلا سمة مميزة لمعظم هذه الحركات والافكار والفلسفات التي ولدت منه عبر العصور . فالتوتر الداخلي بين تينك النظرتين الى المطلق ، النظرة الاخروية والنظرة الدنيوية ، يتجلى واضحا منذ ايام القديس أوغسطينوس ويأخذ طابعا حادا لدى القديس « ابيلار » في القرن الثاني عشر حين يحاول أن يتقصى منطقيا النتائج اللازمة عن مبدأي التعليل الكافي والتمام على نحو ما يتجليان في المعنى المتعارف لمذهب الجود الالهي ، وحين ينتهي الى تلك النتيجة التي شاعت وذاعت فيما بعد ولا سيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تعني القول بأن « جودة هذا العالم ـ أفضل سائر العوالم ـ لا تتوقف على انعدام الشرور بل على وجودها » وحين يقرر ان « الشرور لا توجد ما لم يكن من الخير ان توجد الشرور » . أما القديس توما الاكويني فيبدو أنه يثبت مبدأ التمام أول الامر دون التباس أو تقييد ولا يتردد في أن يقول بأن عالما ليس فيه شر ليس بمنزلة العالم الحقيقي من الخير » . غير انه ما يلبث حتى يتردى في تناقض صريح حين يتهرب من نتائج مقدماته ، فيما يبين لفجوي .

ومثل هذا يصدق على اسبينوزا وليبنتز خاصة . فلدى اسبينوزا دليلان متباينان على وجود الله أولهما دليل الوجود الحق القائم على تحديد سبب ذاته بقولنا باختصار « انه ذلك الذي تنطوي ماهيته على الوجود » ، وثانيهما الدليل المبني على ضرورة وجود أي شيء لا يحول دون وجوده ضرب من الاستحالة المنطقية . ومثل ذلك يصدق على ليبنتز وان كان قد غير بعض التغيير مفهوم « ضرورة الوجود » الذي قال به أسبينوزا وأضاف اليه « مفهوم الامكان المؤتلف » . وهو قع في تناقض واضح عند محاولة الرد على التساؤل الاصلي : ما الذي أوجب (اذا كان ثمة موجب) اختيار العالم الموجود فعلا من بين سائر العوالم الممكنة ؟

نظرة نقدية :

وبعد ، هذه نظرة عجلى الى اثر هذا المركّب الفكري ، الذي بدأ بافلاطون والافلاطونية ، وكوّن مفهوم سلسلة الوجود . وهي كما نرى شاهد واضح على ما يريده « لفجوي » حين يدعو الى تأريخ الفكر وحين يجعل من دراسة مثل هذه المركبات الفكريه الرائدة أساسا لتاريخه ، يقابل التاريخ التقليدي للفلسفة الذي لا ينفذ الى ما وراء المذاهب من عناصر موجهة ، والى ما بينها من وحدة ترجع الى وحدة عناصرها وان اختلفت مركباتها .

ولا شك ان هذا النهج في دراسة تاريخ الفكر والفلسفة من شأنه ان يعري هذا التاريخ وان ينبش وراء ظواهره عن العوامل الأساسية المكونة له ، وان يكتشف محتواه الباطن خلف محتواه الظاهر . ومن مزاياه انه يطلعنا خاصة على الدور الاساسي الذي لعبته بعض الافكار الرائدة ، ويكشف عن تلك الحقيقة التي أشرنا اليها منذ البداية وهي تحلق المذاهب الفلسفية حول بعض البؤر الفكرية المشعة ، تسقي منها دوما رفدها ، وتنطلق ابدا منها ، ولا تعدو أن تكون شروحا وحواشي عليها .

وفي هذا دون ريب رد للفلسفة الى الاصول ، وعود بالمذاهب الشتيتة الى ينابيعها الواحدة ، وبيان لوحدة المذاهب الفلسفية في أصولها ـ وان تباينت أشكالها ـ وفضح لحقيقة قد لا تروق للمفكرين والفلاسفة ، وهي كما يقول « لفجوي » ان عدد الفكر الفلسفية والبواعث الجدلية المتباينة تباينا جوهريا محدود دون ريب » (كما ان عدد الفكاهات المتباينة محدود ايضا) و « ان الجدة الظاهرة لكثير من النظم ناجمة عن الجدة في تطبيق العناصر القديمة التي تدخل في تركيبها او عن ترتيبها وحسب » . غير ان لهذا النهج في الدراسة مزالقه التي اشار اليها « لفجوي » نفسه . فالنزعة الى تحليل المذاهب والافكار وردها الى عناصرها ، قد توقع في ضرب من الكيمياء الفلسفية لا تختلف عن الكيمياء الذهنية التي أراد أن يلجأ اليها بعض دارسي الحياة النفسية خلال القرن التاسع عشر . واذا أردنا أن نتحدث بلغة شبيهة بلغة « لفجوي » خلال حديثه عن ضروب الحماس الميتافيزيقي قلنا ان من بين نزعات الفكر الانساني هذه النزعة الى رد المركب الى البسيط والبحث وراء الكل عن العناصر المكونة له ورد الامور الشتيتة اخيرا الى الوحدة . ومثل هذه النزعة كثيرا ما تستهوي الباحث فيغلو فيها وينسج من بنات خياله ويرتمي في التفكير المتحزب المتمذهب الذي يفرض على الواقع قوالبه المبيتة ويجعل من محاكمته تبريرا لنتيجة يأبى الا أن يصل اليها .

والحق ان واقع الفكر وواقع الفلسفة ـ شأنه في ذلك شأن كل ما في الحياة ـ أغنى وأكثر تعقيدا من ان يرتد الى عامل وحيد او عوامل محدودة . والحياة تظل عصية على أن تدخل في اطار نزوعنا الفطري الى التبسيط والوحدة . وتفسير ظواهر الفكر وظواهر الحياة عامة بالعوامل الواحدية ـ على حد تعبير ديوي ـ مركب خطر . **والتفسير السليم في نظرنا هو دوما وأبدا التفسير بالعوامل**

المتعددة المتشابكة وبتداخل العوامل وتشابكها . فليس بين ظواهر الفكر صلة علة ومعلول يسيران على خط مستقيم، بل الصلة الحقة صلة دائرية ، صلة تأثر وتأثير متبادلين بين جملة من العوامل والمؤثرات . والتركيب المحدث لجملة من العناصر — ان صح انها واحدة — هو خلق جديد لهذه العناصر . ولفجوي نفسه يشير الى شيء من هذا حين يبين ان عناصر المذاهب الفلسفية ، حين تدخل في تراكيب منطقية مختلفة ، يغدو شأنها شأن المركبات الكيميائية التي تختلف في خواصها المحسوسة عن العناصر التي تتركب منها.

ومن هنا كان من الواجب عند الاقدام على مثل هذه المحاولة في تأريخ الفكر ، اجتناب هذا المزلق ، مزلق التبسيط ورد الامور الى الوحدة واستخراج العناصر البسيطة من الكل العضوي المبتكر الذي تنتسب اليه . ودراسة تاريخ الفكر — كما يقول لفجوي نفسه — حافلة بالمخاطر والمهاوي ، ولها جانب من الغلو يميزها .. وقد تنحط — كما يقول لفجوي ايضا — الى درك ضرب من التعميم التاريخي الخيالي ، لانها تستهدف أولا وبالذات هذا التأويل والتوحيد وتعمل على ربط الاشياء التي ليست في الظاهر مرتبطة .

أما مضمون المركب الفكري الذي يتحدث عنه لفجوي في كتابه ، نعني مبدأ التمام وما لحق به من مبدأ الاتصال ومن مفهوم سلسلة الوجود ، فليس المجال مجال مناقشته، كما ان المجال لا يتسع للخوض في المناقشات العديدة التي يثيرها الكتاب حول هاتين الصفتين المتناقضتين من صفات الخير المطلق ، صفة الكمال والاكتفاء ، وصفة الجود والخلق والعطاء . وحسبنا ان نقول ان هذه المناقشات تعيد الى الاذهان تاريخ العصر الوسيط كله والمذاهب الفلسفية واللاهوتية التي قامت على قدم وساق منذ أيام القديس اوغسطينوس حتى جان سكوت ايريجين والقديس أبيلار

واخيرا القديس توماس الاكويني و « دونس سكوت » و « غيوم دوكام »

وتباشير عناصر النهضة . بل ان هذه المناقشات تعوج بنا الى العصر الوسيط الاسلامي ، والى جدل المتكلمين من معتزلة وأشعرية ، والى النزاع الذي احتدم حول صفات الخالق وحول التنزيه والتشبيه وحول قدم العالم وحدوثه . انها تذكر خاصة بأبحاث المعتزلة حول العلاقة بين الله تعالى والطبيعة وتعليل بعضهم لوجود الشر بأنه من آثار الحكمة الالهية وقول فرق اخر ان الله تعالى لا قدر على فعل شيء يدل على نقص ويناقض كماله . بل هي تذكير بأبحاث بعض المتأخرين من المعتزلة — أمثال معمر وأبي هاشم — ممن ينزهون الله تعالى عن جميع صور التركيب ويرون انه لا يعلم ذاته ولا يعلم غيره لان هذا يؤدي الى التعدد في ذاته ، وممن ينكرون (من مثل معمر) أن يكون الله تعالى موصوفا بالقدم .

ولا حاجة الى القول ان ثمة قاسما مشتركا واضحا في هذا المجال بين انظار لاهوتيي القرون الوسطى المسيحية وبين أفكار متكلمي المسلمين ، وهذا القاسم المشترك يرجع كما نعلم الى حظ من الوحدة في المشكلات اللاهوتية التي طرحها العقل الانساني عبر العصور ، كما يرجع الى صلات مباشرة وتأثر وتأثير متبادلين قاما بين مفكري المسيحية ومتكلمي الاسلام ، على نحو ما نجد ذلك بينا بوجه خاص في اثر الرشدية اللاتينية في الغرب ، وفي اثر العقائد المسيحية (المتجلية في مذاهب الملكانية واليعاقبة والنسطورية والغنوسطية) في مذاهب المتكلمين المسلمين. ولا حاجة الى القول كذلك ان كلا من لاهوتيي المسيحية وفلاسفة الاسلام ومتكلميهم نقلوا فلسفة أفلاطون وأرسطو وتأثروا أفكارهم والهيانهم . أما فلاسفة المسيحية فنرى من خلال كتاب لفجوي هذا مبلغ تأثرهم بأفكار افلاطون حول فكرة الخير الاسمى . واما فلاسفة المسلمين فنعلم تأثرهم خاصة بافلاطون والافلاطونية المحدثة في باب الالهيات، ونعرف بوجه اخص اثر كتاب الربوبية (اوتولوجيا ارسطاليس) المنسوب الى أرسطو والمستقى في حقيقة الامر من تاسوعات إفلوطين .

ان هذا التشابه بين المشكلات التي اثارها العصر الوسيط المسيحي والعصر الوسيط الاسلامي ، وهذه الاصول المشتركة التي سقى كل منهما رفده وامتاح أفكاره ، تنهض دليلا جديدا على صحة ما يذهب اليه « لفجوي » في تأريخه للافكار حيث يبحث عن تلك الوحدات الفكرية الاصيلة التي تثوي وراء طائفة كبرى من المذاهب . غير انها في الوقت نفسه تنهض دليلا على حدود مثل هذه الدراسة . فعلى الرغم من وجود كثير من الاصول المشتركة بين الافكار اللاهوتية في العصر الوسيط المسيحي وبين افكار الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفين في الاسلام ، يظل من الصحيح ان هذه الاصول المشتركة تلبس في كل منهما لبوسا خاصا وتتلون بلون الثقافة الخاصة بكل من الغرب والشرق ، وتتفاعل مع جملة التراث الخاص بكل منهما تفاعلا يكاد يفقدها هويتها لدى مفكري الاسلام خاصة .

خاتمة: ويطول بنا الحديث ان نحن اردنا ان نقف عند الجوانب العديدة لكتاب « لفجوي » وان ننظر اليها نظرة الناقد المحلل . ولعل ذلك يتطلب منا سفرا بل أسفارا .

وحسبنا في هذه العجالة أن أومأنا الى ما يحفل به هذا الكتاب من زاد ثري وما يثيره من مشكلات خصيب وما يطرحه على الذهن من تساؤلات عريضة تغري القارىء بتفحصه وتقريبه كرة بعد كرة . والكتاب — فضلا عن الموضوعات الفنية التي يثيرها — ذو نظرة محيطة بثقافات متعددة متنوعة ، تتجاوز الفلسفة والفكر الى الادب والشعر والفن .

وتزيد في روعته الترجمة البارعة الدقيقة التي قام بها الدكتور ماجد فخري ، تلك الترجمة التي كانت جديرة حقا بجائزة أصدقاء الكتاب والتي تكشف عن جهد فذ وكفاءة فريدة ، والتي استطاعت — بفضل أصالة ديباجتها ودقة نقلها — ان تمد المكتبة العربية بزاد تفخر به ، لا بد أن يشمخ بين أمهات الكتب التي تضمها .

بيروت — **عبد الله عبد الدائم**